تراث الإنسانية



# الكامل للمبرد



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

إبراهيم الإبياري

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤



# مهرجان القراءة للجميع ٩٤

## مكتبة الأسرة

## (تراث الإنسانية)


الجهات المشتركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى
مراد نسيم
احمد صليحة

المشرف العام
د . سمير سرحان




# الكامل للمبرّد

**ابراهيم الإبيارى**

---

تمهيد :

خرجت الدولة العربية من العصر العباسى الأول الذى بدأ بظهور الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ وانتهى بتولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢ م لتستقبل العصر العباسى الثانى الذى انتهى باستقرار الدولة البويهية فى بغداد سنة ٣٣٤ هـ :

خرجت الدولة العربية من هذا العصر العباسى الأول بعد أن استوت لها علوم منها النحو والعروض، وبعد أن اتضح الفقه واستقامت مذاهبه الأربعة ، وبعد أن تميز الشعر بوضوح طريقته، وبعد أن عبدت الطريق لكتب السير والمغازى والفتوح، وبعد أن أفادت اللغة من تراث الأمم القديمة مثل اليونان والفرس والهند.

خرجت الأمة العربية من هذا العصر(*) بزاد كبير

---

(*) مراتب النحويين (النحاة) لأبي الطيب عبد الواحد بن علي (بعد ٣٥٠ هـ) (ص ١٣٦) ـ طبقات النحويين البصريين للسيرافي ابي سعيد حسن بن عبد الله (٣٦٨ هـ) (ص ٩٦) ـ طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ابى بكر محمد بن الحسين (٣٧٩ هـ) (٧٠ ـ ٨٠) ـ معجم الشعراء للمرزباني محمد بن عمران (٣٨٤ هـ) (ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠) ـ حلية الأدباء (نقل عنه ابن النديم) ـ فهرس العلوم لابن النديم محمد بن اسحاق (٣٨٥ هـ) (ص ٥٩ ـ ٦٠) ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم أبى محمد على بن أحمد (٤٥٦ هـ) (ص ٣٧٧) ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادى أبى بكر احمد بن على (٤٦٣ هـ) (ص ٣: ٣٨٠ ـ ٣٨٧) ـ سمط اللآلى لأبى عبيد البكرى عبد الله بن عبد العزيز (٤٨٧ هـ) (ص ٣٤٧) ـ الفصوص لصاعد بن الحسن الربعى (٤١٧ هـ) نقل عنه ابن حجر فى لسان الميزان ـ الأنساب للسمعانى ابى سعد عبد الكريم بن محمد (٥٦٢ هـ) (و: ١١١٦ أ) ـ نزهة الالبا فى طبقات الأدبا لابن الانبارى ابى البركات عبد الرحمن بن محمد (٥٧٧ هـ) (ص ٢٧٩ ـ ٢٩٣) ـ المنتظم فى تاريخ الأمم لابن الجوزى عبد الرحمن بن على (٥٩٧ هـ) (سنة ٢٨٥) ـ الالقاب لابن الجوزى ايضاً، نقل عنه ابن خلكان ـ ارشاد الاريب ـ معجم الادباء ـ لياقوت ابن عبد الله الرومى (٦٢٦ هـ) (١٩: ١١١ ـ ١٢٢) ـ المقتضب لياقوت ايضاً (ص٧٣) ـ الكامل فى التاريخ لابن الاثير ابى الحسن على بن محمد (٦٣٠ هـ) (سنة ٢٨٤ هـ) اللباب فى معرفة الأنساب لابن الأثير ايضاً (١: ١٩٧) المقتبس ـ لابى عبيد الله محمد بن عمران (نقل عنه القفطى) ـ انباه الرواه للقفطى أبى الحسن على بن يوسف (٦٤٦ هـ) (٣: ٢٤١ ـ ٢٥٢) ـ وفيات الاعيان لابن خلكان احمد بن محمد (٦٨١ هـ) (١: ٤٨٥ ـ ٤٩٧) ـ المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا إسماعيل بن على (٧٣٢ هـ) (٢: ٥٨) ـ تلخيص ابن مكتوم أبى محمد أحمد بن عبد القادر (٧٤٩ هـ) (٢٣٨ ـ ٢٣٩) ـ إشارة التعيين إلى تراجم النحاة اللغويين لأبى المحاسن عبد الباقى بن على (القرن الثامن) (ص ٥٣) ـ مسالك الابصار للعمرى أحمد بن يحيى (٧٤٧ هـ) (ق ٤ جـ ٢ ص ٢٨٧ ـ ٢٩٠) ـ مراة الجنان لليافعى عبد الله بن اسعد (٧٦٨ هـ) (٢: ٢١٠ ـ ٢٦٣) ـ البداية والنهاية لابن كثير إسماعيل بن عمر (٧٧٤ هـ) (١١: ٩٧ ـ ٨٠) ـ غاية النهاية لابن الجزرى محمد بن محمد (٨٣٣ هـ) (٢: ٢٨٠) ـ طبقات ابن قاضى شهبة تقى الدين بن أحمد (٨٥١ هـ) (١: ١٤٦ ـ ١٥١) ـ لسان الميزان لابن حجر أحمد بن على (٨٥٢ هـ) (٥: ٤٣٠ ـ ٤٣٢) ـ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جمال الدين يوسف (١١٦ ـ ١١٧) ـ المزهر للسيوطى أيضا (٢: ٤٠٨ و ٤١٩ و ٤٢٧ و ٤٦٤) ـ طبقات المفسرين للداودى محمد بن على، تلميذ السيوطى (القرن العاشر) (٢٩٥ ـ ٢٩٧) ـ شذرات الذهب لابن العماد عبد الحى بن احمد (١٠٨٩ هـ) (٢: ١٩٠ ـ ١٩١) ـ روضات الجنات لمحمد باقر (القرن الثالث عشر) (ص ٦٠) ـ كشف الظنون لحاجى خليفه.

من كتب في الأدب واللغة والنحو والنسب والأشعار والأخبار والأمثال تعد بالمئات، وإن كانت الأيام قد عبثت بها فلم يبق منها إلا عشرات، لتستقبل عصراً اتسعت عليها فيه الدنيا بحضارتها فاتسعت له عقولها تعي، وألسنتها تنطق، وأيديها تخط. غير أن ثمة ظاهرتين نلحظهما في هذا العصر العباسي الثاني:

**أولاهما** : تخلُّف علم النحو. فقد عاش النحاة فيه على كتاب سيبويه ولم يقووا على خلق كتاب يقوم مقامه ، وكل ما كان لهم في ذلك الميدان تعليقات ومختصرات حول هذا الكتاب.

**والظاهرة الثانية** : تخلُّف علم اللغة، وكما شده كتاب سيبويه النحاة شده كتاب العين للخليل اللغويين، هذا إذا استثنينا الهروي (٢٥٥ هـ) الذي ألف معجماً بدأه بحرف الجيم على ترتيب الخليل.

ولعل هذه الظاهرة وتلك هما اللتان جعلتا النحاة واللغويين يمزجون بين النحو واللغة والأدب ، فكان النحوي أديباً ولغوياً وكان اللغوي نحوياً وأديباً.

وإن كنا لا ننكر على لغويي هذا العصر تمهيدهم السبيل لمن أتى بعدهم من لغويي العصر العباسي

الثالث بما ألفوا من كتب أقرب شئ إلى المعاجم كانت مادة لها، ومن هؤلاء اللغويين فى هذا العصر رجلنا الذى سنحدثك عنه: أبو العباس المبرد.

## أبو العباس المبرد:

وقبل أن نمضى فى الحديث عن أبى العباس المبرد نحب أن نشير إلى أنه كان ثمة رأيان فى النحو يسودان، تحتضنهما مدرستان هما مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة، وكما شغلت هاتان المدرستان بالجدل فى قواعد النحو وأحكامه وشروطه، شغل بعدهما مؤلفون باثبات هذا الخلاف والحكم فيه، غير أن هذا الخلاف أخذ فى الضعف منذ أواخر القرن الثالث الهجرى بعد أن بلغ أشده فى العصر العباسى الأول. ومن هؤلاء المؤلفين كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الانبارى (٥٧٧ هـ) الذى ألف كتاب «الإنصاف فى مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين» جمع فيه إحدى وعشرين ومائة مسألة خلافية، ثم أبو البقاء العكبرى عبد الله بن الحسين (٦١٦ هـ) الذى ألف كتاب «التبيين فى مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين». ثم جاء جلال الدين السيوطى عبد الرحمن بن أبى بكر

(٩١١ هـ) فلخص ما فى هذين الكتابين وضمنهما الجزء الثانى من كتابه «الأشباه والنظائر» ولقد اختار فيه اثنتين ومائة مسألة.

ونحب أن نشير إلى أن أبا العباس ثعلباً كان آخر أساتذة المدرسة الكوفية المرموقين، وأن أبا العباس المبرد كان آخر أساتذة المدرسة البصرية الملحوظين.

وإلى ثمالة الأزدى ينتمى المبرد. وعلى هذا يسوق النسابون نسبة فيقولون : هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عمير بن حسان بن سليم بن سعد بن عبد الله ابن زيد بن مالك بن الحارث بن عامر بن عبد الله بن بلال بن عوف - وهو ثمالة - بن أسلم بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد.

غير أنهم يختلفون فى ثلاثة جدود له، هم : عمير وسليم وأسلم، فيقول بعضهم «عميرة» مكان «عمير» كما يثبت بعضهم «سليمان» مكان «سليم» كما يضيف بعضهم «أحجن» بين «أسلم» و«كعب».

ثم نراهم يختلفون رابعة فيمن هو «ثمالة» أهو عوف بن أسلم، كما قدمنا ، أم هو أسلم أبوه؟

وينقل ابن خلكان عن كتاب «الاشتقاق» للمبرد سبب تسمية تلك القبيلة بثمالة، وابن خلكان أحد هؤلاء الذين يقولون بأن ثمالة هو عوف بن أسلم، ثم يمضي بعد هذا ينقل عن المبرد من كتابه «الاشتقاق» رأيه فى سبب تلقيب ثمالة بهذا اللقب.، فإن صح أن ابن خلكان حين نقل الثانية من كتاب «الاشتقاق» للمبرد نقل الأولى،كان فى هذا ما يرجح قول القائلين أن ثمالة هو عوف بن أسلم، وإلا فلا ترجيح.

وسبب هذا اللقب، كما يقول المبرد وينقل عنه ابن خلكان ، هو أنهم شهدوا حرباً ففنى فيها أكثرهم فقال الناس : ما بقى إلا ثمالة. والثمالة : البقية اليسيرة.

والغريب ألا يقع ابن دريد (٢٣١ هـ) حين ألف هو الآخر كتابه «الاشتقاق» على هذا الرأى السابق فنراه لا يشير إليه وهو يذكر ثمالة وسبب تلقيبهم بهذا اللقب، ويذكر رأياً آخر فيقول : «والثمالة : رغوة اللبن، والجمع ثمال».

وعلى أية حال فقد تميزت بشئ من بين أجداد المبرد، ولعل تميزها هذا هو الذى جعل المبرد يقف عندها وينتمى إليها، ثم يلح فى هذا الانتماء ليشيع

فيصنع أبياتاً من الشعر يهجو بها نفسه ذاكراً هذا الحي ثمالة، فتشيع الأبيات ويحصل المبرد على ما يجب من اشتهاره بهذه القبيلة.

وهذه الأبيات كما تنسب للمبرد على هذا القول الذي يقوله ابن خلكان، تنسب أيضاً لعبد الصمد بن المعذل برواية المبرد عنه، ولعل رواية المبرد لها بغية إثبات نسبة فى هذه القبيلة التى حركت هذا الشك فى نسبتها إليه ، والأبيات هى :

سألنا عن ثمالة كل حى
فقال القائلون ومن ثماله

فقلت محمد بن يزيد منهم
فقالوا زدتنا بهم جهالة

فقال لى المبرد خل عنى
فقومى معشر فيهم نذالة

و«المبرد» لقب «محمد» مختلف فى سببه هو الآخر مختلف فى ضبطه. فيرى ابن خلكان عن ابن الجوزى فى كتابه «الألقاب» يقول : سئل المبرد: لم لقبت بهذا اللقب ؟ فقال : كان سبب ذلك أن صاحب الشرطة طلبنى للمنادمة والمذاكرة فكرهت الذهاب إليه فدخلت

إلى أبى حاتم السجستانى، فجاء رسول الوالى يطلبنى، فـقـال لى أبو حـاتم: ادخل فى هذا - يـعنى غـلافى مـــزمـلة [(١)]. فدخلت فيه وغطى رأسه ثم خرج إلى الرسول وقال: ليس عندى. فقال: أخبرتك أنه دخل إليك. فقال: ادخل الدار وفتشها. فدخل فطاف كل موضع فى الدار ولم يفطن لغلاف المزملة. ثم خرج، فجعل أبو حاتم يصفق وينادى على المزملة: المبرد المبرد، وتسامع الناس بذلك فلهجوا به.

ومثل هذا القول يرويه القفطى عن ابن عمران فى كتابه «المقتبس».

ويسوق ياقوت رأياً آخر فيقول: وإنما لقب بالمبرّد لأنه لما صنف المازنى كتاب «الألف واللام» سأله عن دقيقه وعويصه فأجابه بأحسن جواب. فقال له المازنى: قم فأنت المبرِّد - بكسر الراء - أى المثبت للحق. فحرفه الكوفيين وفتحوا الراء.

وينقل هذا الرأى السيوطى فى كتابه «البغية» ويقتصر عليه، كما يشير إليه ابن خلكان إشارة عابرة

(١) المزملة: التى يبرد فيها الماء.

بعد ما ذكر الرأى الأول الذى سقناه قبل فيقول : وقيل إن الذى لقبه بهذا اللقب شيخه أبو عثمان المازنى.

غير أن ابن خلكان لا يقف عند هذه بل يشير إلى رأى أو آراء أخرى يكتفى بالتلميح إليها فيقول : وقيل غير ذلك.

فنحن الآن بين رأيين فى سبب تلقيبه لا نكاد نقطع بأحدهما بعد أن لم يقطع بهما من سبقوا، ولكنا نملك أن نقطع بأن ضبطه : المبرد، بكسر الراء المشددة، وأن فتحها من صنع الكوفيين لحاجة فى أنفسهم. ولقد أثر عن المبرد أنه كان يقول : برد الله من بردّنى.

وهذا الرجل الذى اختلف فيما يمس نسبه ولقبه اختلفوا فيما يمس مولده ووفاته. ويذهب أكثرهم إلى أن مولده كان سنة عشر ومائتين (٢١٠ هـ) ويزيد ابن خلكان فيجعل ولادته يوم الاثنين عيد الأضحى من تلك السنة. ومن المؤرخين من يجعل مولده سنة ست عشرة ومائتين (٢٠٧ هـ) ومنهم من يجعلها سنة عشرين ومائتين.

وكما اختلفوا فى مولده نراهم يختلفون فى وفاته، فيذهب أكثرهم إلى أن وفاته كانت فى سنة خمس وثمانين ومائتين (٢٨٥ هـ). ويزيد بعضهم فيقول : إن هذه الوفاة كانت يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة.

ومنهم من يجعل وفاته فى سنة ست وثمانين ومائتين (٢٨٦ هـ) فى ذى الحجة من تلك السنة. ومنهم من يجعلها فى سنة أربع وثمانين ومائتين (٢٨٤ هـ) وفى شوال من تلك السنة.

غير أن الخلاف لا ينتهى عند هذا ، فلقد نقل القفطى نقولا مضطربة لم يمل فيها رأياً.

فنراه يقول : وقال عبد الله بن سعد القطربلى فى تاريخه : مات أبو العباس المبرد يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة خمس وثمانين ومائتين وله تسع وسبعون سنة - أى إن مولده كان سنة ست ومائتين على التقريب - ويقول : قال أبو على إسماعيل ابن محمد الصفار : مات أبو العباس المبرد فى ذى الحجة سنة خمس وثمانين ومائتين. وذكر غيرهم. فى ذى القعدة وقال غيرهم : إنه نيف على التسعين - وعلى هذا فيكون مولده نحو سنة خمس وتسعين ومائة (١٩٥ هـ).

ثم يعود فيقول : وكان مولد أبى العباس يوم الاثنين فى ذى الحجة ليلة الأضحى سنة عشرين ومائتين وتوفى يوم الاثنين لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ست وثمانين ومائتين.

ثم يمضى فيقول : قال أبو سعيد : وكان مولده فيما أخبرنا به أبو بكر بن السراج وأبو على الصفار فى سنة عشر ومائتين. ومات سنة خمس وثمانين ومائتين وله تسع وسبعون سنة. وقيل : مولده سنة سبع ومائتين.

والنص على هذا فيه استحالة. وظاهر أنه مضطرب تقديماً وتأخيراً. وهو لو أقيم على هذا الوجه : «وكان مولده فيما أخبرنا به أبو بكر بن السراج وأبو على الصفار فى سنة عشر ومائتين. وقيل مولده فى سنة تسع ومائتين ومات سنة خمس وثمانين ومائتين وله تسع وسبعون سنة» صح وبرئ من الاستحالة.

فها أنت ترى أن مولد أبى العباس المبرد كان بين سنتى ١٩٥ هـ وسنة ٢٢٠ هـ. وأن وفاته كانت بين سنتى ٢٨٤ هـ وسنة ٢٨٦ هـ.

والشئ المقطوع به بعد هذا أنه مات بالكوفة وبمقابرها دفن، وصلى عليه أبو محمد يوسف بن يعقوب القاضي حين مات، ورثاه أبو بكر بن العلاف بهذه الأبيات :

ذهب المبرد وانقضت أيامه

وليذهب إثر المبرد ثعلب

بيت من الآداب أضحى نصفه

خربا وباقي النصف منه سيخرب

فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا

للدهر أنفسكم على ما يسلب

وتزودوا عن ثعلب فبكأس ما

شرب المبرد عن قريب يشرب

أوصيكم أن تكتبوا أنفاسه

ان كانت الأنفاس مما يكتب

وكما كان مولد المبرد بالبصرة كذلك كانت نشأته وبها بنى على ابنة الحفصي المُغَنّي.

وبالبصرة أخذ عن شيوخها أبى عثمان بكر بن محمد المازنى (٢٤٩ هـ) وأبى حاتم سهل بن محمد السجستانى (٢٤٨ هـ) وأبى عمر صالح بن اسحاق الجرمى (٢٢٥ هـ).

ويقول القفطى : قرأ المبرد كتاب سيبويه على الجرمى ، ثم توفى الجرمى فابتدأ قراءته على المازنى.

ويروى إبراهيم بن محمد المسمعى، وكان من معاصرى المبرد بالبصرة، يقول : رأينا محمد بن يزيد وهو حدث السن يتصدر فى حلقة أبى عثمان المازنى يقرأ عليه كتاب سيبويه، وأبو عثمان فى تلك الحلقة كأحد من فيها.

ويقول أبو الطيب محمد بن عبد الله الكاتب. كنت يوماً عند أبى حاتم السجستانى إذ أتاه شاب من أهل نيسابور فقال : يا أبا حاتم ، إنى قدمت بلدكم العلم والعلماء وانت شيخ هذه المدينة وقد أحببت أن أقرأ عليك كتاب سيبويه . فقال : الدين النصيحة، إن أردت أن تنتفع بما تقرؤه على هذا الغلام محمد ابن يزيد.

فتلك التى رويت على لسان المسمعى، وهذه التى يقصها أبو الطيب، تفيد أن المبرد نبغ صغيراً واستحق

أن يكون شيخاً يقرأ عليه ويؤخذ عنه. ولعلك تذكر ذلك الخبر الذى مر بك فى صدر هذا المقال عند الحديث على سبب تلقيب شيخه المازنى له بالمبرد - أى المثبت للحق - وذلك حين أجابه عن دقائق كتابه «الألف واللام» فأحسن الجواب.

وعلى الرغم من نبوغ المبرد وشهادة أستاذه له بالفوق فقد ظل محجوباً به إلى أن حمل إلى المتوكل بسرُ من رأى، وكان قد اتخذها المتوكل مقراً لخلافته بعد أن أمضى فى دمشق شهرين، وذلك حين ولى سنة ٢٣٢ هـ. وما كان هذا الحمل عن ذيوع صيت ولكن كان بسبب صداقة يزيد بن محمد المهلبى للمبرد، فهو الذى دل المتوكل عليه حين اختلف والفتح بن خاقان. فى قراءة هذه الآية من القرآن الكريم «وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون» أهى بفتح الهمزة فى «أنها» أم بكسرها، وتحاكما إليه - أعنى إلى يزيد بن محمد المهلبى، وكان صديقاً للمبرد. فقال للخليفة المتوكل : ما أعرف الفرق بينهما وما رأيت أعجب من أن يكون باب أمير المؤمنين يخلو من عالم متقدم ! فقال المتوكل : فليس ها هنا من يسأل عن هذا ؟ فقال ما أعرف أحداً يتقدم فتى بالبصرة يعرف بالمبرد فقال المتوكل : ينبغى أن يشخص.

ودخل المبرد سرَّ من رأى، سنة ست وأربعين ومائتين وحكم بين المتوكل والفتح ونال جائزة المتوكل وبقى فى بلاطه بسرَّ من رأى إلى أن قتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ.

وبعد مقتل المتوكل ترك المبرد سرَّ من رأى، قاصداً بغداد، حيث كرسى الخلافة، ولم يعد إلى البصرة، فقد كان لا يزال بها شيخاه : المازنى والسجستانى . ثم هو قد جرب حياة العواصم وما فيها من مجالات لذيوع الاسم وارتفاع الصيت.

وكان ببغداد ندٌ للمبرد، هو أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب. وما يسوقه المؤرخون عن حياة الرجلين يكاد يشير إلى أنهما عاشا ـ أعنى المبرد وثعلب ـ من قبل دخول المبرد إلى بغداد لا يعرف أحدهما الآخر ولا يسمع به.

ولنفسح للقفطى يحدثنا حديث ذلك، يقول القفطى ولما قتل المتوكل بسرَّ من رأى، دخل المبرّد إلى بغداد. فقدم بلداً لا عهد له بأهله. فاختل وأدركته الحاجة. فتوخى شهود صلاة الجمعة. فلما قضيت الصلاة اقبل على بعض من حضره وسأله أن يفاتحه السؤال

ليتسبب له القول، فلم يكن عند من حضر علم. فلما رأى ذلك رفع صوته وطفق يفسر ويوهم بذلك أنه قد سئل . فصارت حول حلقة عظيمة وأبو العباس يصل فى ذلك كلامه.

فتشوف أحمد بن يحيى ثعلب إلى الحلقة، فلما نظر ثعلب إلى من حول أبى العباس المبرّد أمر إبراهيم ابن السرى الزجاج بالنهوض إليه وقال له : فضُ حلقة هذا الرجل. فنهض الزجاج ونهض معه من حضر من أصحابه.

ويسأل الزجاج المبرد عن مسألة فيجيبه، ثم يعود المبرد إلى الزجاج فيشككه فى الجواب ، ثم يرتد يؤكده له، والزجاج مبهوت. يفعل المبرد ذلك مع الزجاج فى أربع عشرة مسألة سأل الزجاج عنها المبرد.

وحين رأى الزجاج ذلك التفت إلى أصحابه الذين نهضوا معه يقول لهم : عودوا إلى الشيخ - يعنى ثعلبا - فلست مفارقاً هذا الرجل، ولابد لى من ملازمته والأخذ عنه.

فيعاتبه أصحابه ويقولون له : أتأخذ عن مجهول لا يعرف اسمه وتدع من شهر اسمه وعلمه ؟

وهكذا تؤكد تلك القصة ما ذهبت إليه من أن الرجلين أعنى المبرد وثعلبا لم يكن أحدهما يعرف الآخر قبل أن يهبط المبرد بغداد، وأن المبرد لم يكن له اسم يعرف فى بغداد قبل أن ينزلها.

وحين نزل المبرد كانت الحرب بينه وبين ثعلب. وها أنت ذا قد أدركت كيف بدأت هذه الحرب. وإن كنت تحب أن تعرف كيف مضت على أشدها بينهما حتى أصبحت مضرب المثل، فحسبك قول الشاعر:

كفى حزنا أنا جميعاً ببلدة

ويجمعنا فى أرضها شر مشهد

نروح ونغــــدو لا تزاور بيننا

وليس بمضروب لنا يوم موعد

فــأبداننا فى بلدة والتـــقاؤنا

عــسير كلقيا ثعلب والمبرد

وحق لثعلب أن يغضب، فلقد دخل عليه المبرد بلده واحتل مكانه واستأثر بالسبق دونه وحسبه أن يسمع من حوله يرددون:

رأيت محمد بن يزيد يسمو

إلى الخيرات منقطع النظير

جليس خلائف وغذى ملك

وأعلم من رأيت بكل أمر

وكان الشعر قد أودى فأحيا

أبو العباس دائر كل شعر

وينثر إن أجال الفكر دراً

وينثر لؤلؤا من غير فكر

وقالوا ثعلب رجل عظيم

وأين النجم من شمس وبدر

وقالوا ثعلب يفتى ويملى

وأين الثعلبان من الهزبر

وهذا فى فعالك مستحيل

تشبه جدولا وشلا ببحر

ولعلك أدركت كيف خسر ثعلب الجولة الأولى حين انصرف الزجاج عنه. ولقد أفاد المبرد من هذه فضم

إليه الزجاج ضمة أخرى فجعل لا يقرئ أحداً كتاب سيبويه حتى يقرأه هذا المريد على إبراهيم الزجاج، فكان ذلك أول ظهور الزجاج.

ثم لقد كان المبرد كما يصفه المؤرخون على غزارة أدب وكثرة حفظ وحسن إشارة وفصاحة لسان وبراعة بيان، كما كان ملوكي المجالسة كريم المعاشرة بليغ المكاتبة حلو المخاطبة. له جودة خط وصحة قريحة وقرب إفهام ورجوح شرح وعذوبة منطق. امتاز من هذا كله بما لم يعرف لأحد سبقه ولا لأحد جاء بعده، كما يقولون.

ويحكى أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الفقيه الموصلي، وكان صديقاً للمبرد وثعلب، يقول : قلت لأبى عبد الله الدينورى ـ ختن الثعلب ـ : لم يأبى ثعلب الاجتماع بالمبرد ؟ فقال : لأن المبرد حسن العبارة حلو الإشارة فصيح اللسان ظاهر البيان، وثعلب مذهبه مذهب المعلمين، فاذا اجتمعا فى محفل حكم للمبرد.

ويروى السيرافى عن صاحب لثعلب هو أبو بكر ابن مجاهد، فلقد سمعه يقول : ما رأيت أحسن جواباً من المبرد فى معانى القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم، ولقد فاتنى منه علم كثير.

غير أن المبرّد على هذا كان يعاب عليه حفظه لكثير من الأخبار بغير أسانيدها فى عصر كان لا يزال للأسانيد قدرها ولا تقبل الروايات دونها، وهذا هو ما جعل الناس من حوله يتهمونه بالوضع فيما يرويه غير مسند.

ويروون أن قوماً تواضعوا على مسألة لا أصل لها لينظروا ماذا يجيب، وكانوا قد شغلوا بتقطيع بيت من الشعر، وهو :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا

حنانيك بعض الشر أهون من بعض

واختلفوا فيما بينهم لم يعرفوا من أى بحر هو، وتردد على أفواههم من تقطيعه «ق بعضنا»، ثم حلا لهم أن يذهبوا إلى المبرد ويسألوه عند تلك الكلمة التى امتزجت من بعض كلمة وكلمة، ويقولوا له : ما القبعض عند العرب ؟ ويجيب المبرد: هو القطن، وينشدهم فى ذلك شعراً وهو :

ـ كأن سنامها حش القبعضا ـ

وانصرف عنه القوم يقول بعضهم لبعض : إن كان الجواب صحيحاً فهو عجب، وإن كان مختلفاً على البديهة فهو أعجب.

وما أظن هذه تصح على رجل عالم يحرص على سلامته فى بيئة تحتدم فيها الخصومة بينه وبين ند له هو ثعلب، ثم إن هذه كتبه التى خلفها من بعده لا تلمس فيها أثراً لوضع.

وقبل أن أحدثك عن كتبه أحب أن أحدثك عمن أخذوا عنه لتعرف كيف جمع علم الرجل الناس من حوله، ولو كان علماً زائفاً لانفضوا من حوله، فالمؤرخون يذكرون من تلامذته ومن أخذوا عنه :

(١) نفطويه إبراهيم بن محمد بن عرفة - (٢) الحلبى محمد بن أحمد إبراهيم - (٣) الصولى محمد ابن يحيى - (٤) الخرائطى محمد بن جعفر - (٥) الأشنانى عمر بن حسن بن مالك - (٦) ابن درستويه عبد الله بن جعفر - (٧) غلام ثعلب محمد بن عبد الواحد - (٨) ابن أبى الأزهر محمد بن زيد - (٩) ابن زياد أحمد بن محمد - (١٠) الصفار إسماعيل بن محمد - (١١) الطومارى عيسى بن محمد - (١٢) الدنيورى محمد بن مروان.

وبعد فقد ترك المبرد ما يقرب من خمسين كتاباً تمثل ثقافته المختلفة، فقد ألف فى اللغة وفى النحو وفى الصرف وفى الشعر وفى البلاغة وفى علوم القرآن وفى الأدب وفى الأنساب وفى تراجم الرجال، ولكل كتاب من هذه الكتب أصالته، ولكل كتاب دقة موضوعه، منه ما وقع لنا باسمه ونصه، ومنها ما وقع لنا باسمه فقط وها هى ذى كثير :

(١) احتجاج القرآن - (٢) أدب الجليس - (٣) أسماء الدواهى عند العرب - (٤) الاشتقاق. وقد نقل عنه ابن خلكان شيئاً عن ثمالة التى ينتسب إليها المبرد. وهذا النقل يكشف لك عن موضوع الكتاب - (٥) الاعراب - (٦) اعراب القرآن - (٧) الأنواء والأزمنة - (٨) البلاغة - (٩) التصريف - (١٠) التعازى والمراثى. ومنه خطية بمكتبة الاسكوريال - (١١) الجامع، ولم يتمه، - (١٢) الحث على الأدب والصدق - (١٣) الحروف - (١٤) الحروف ومعانى القرآن إلى طه - (١٥) الخط والهجاء - (١٦) الرد على سيبويه - (١٧) الرسالة الكاملة - (١٨) رسالة فى الجواب على سؤال وجهه إليه الواثق بشأن الشعر والنثر. ومنها خطية بمكتبة ميونخ وأخرى فى برلين.

(١٩) الروضــة. وقـد نقل عنه ابن خلكان شـيـئـاً يتصل بشعر الحسن بن هانئ. كما تحدث عنه البغدادى فى كـتـابه «تاريخ بـغـداد» فـقـال نقـلا عن ابن طومـار، يقـول : كنت عند محمد بن نصير بن بسام فدخل عليه حاجبه فأعطاه رقعة وثلاثة دفاتر كباراً. فقرأ الرقعة فاذا المبرد قد أهدى إليه كتاب الروضة. وكان ابنه على حـاضـراً . قـال : فـرمـى بالجـزء الأول : يعـنى إليـه وقـال له : انظر يا بنى ، هذا أهداه إلينا أبو العـبـاس المبرد. فأخذ ينظر فيه. وكان بين يديه دواة. فشغل أبو جعفر بحديثنا فأخذ على الدواة ووقع على ظهر الجزء شيئاً وتركه وقام . فلما انصرف قال أبو جعفر : أرونى أى شئ قد وقع هذا المشئوم ، فاذا هو :

لـو بـرا الـلـه المـبـــــــــرد

مـن جـــــحـيـم يـتـوقـــد

كـــان فى الروضـــة حـــقـــا

مـن جـــمـيـع الـنـاس أبـرد

ويقول ابن الأنبارى : قال أبو العباس بن عمارة : صحف محمد بن يزيد المبرد فى كتاب الروضة فى قوله «حبيب بن خدرة» فقال «جدرة»، وفى «ربعى بن خراش» فقال «حراش».

(٢٠) الرياحين المونقة - (٢١) الزيادة المنتزعة من كتاب سيبويه - (٢٢) شرح شواهد كتاب سيبويه - (٢٣) شرح كلام العرب وتلخيص ألفاظها - (٢٤) صفات الله جل وعلا «معاني صفات الله جل وعلا» - (٢٥) ضرورة الشعر - (٢٦) طبقات النحويين البصريين وأخبارهم - (٢٧) العبارة عن أسماء الله تعالى - (٢٨) العروض - (٢٩) الفاضل والمفضول - (٣٠) فقر من كتاب سيبويه - (٣١) قحطان وعدنان (نسب عدنان وقحطان) - (٣٢) قواعد الشعر - (٣٣) القوافي - (٣٤) ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه في القرآن. طبع في مصر بالمطبعة السلفية بتحقيق الأستاذ عبد العزيز الميمني - (٣٥) المدخل إلى كتاب سيبويه - (٣٦) المدخل في النحو - (٣٧) المذكر والمؤنث - (٣٨) معاني صفات الله جل اسمه - (٣٩) معاني القرآن، ويسمى : الكتاب التام. وفيه يقول صاحب تاريخ بغداد ما رأيت أحسن حديثاً من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم (٤٠) معنى كتاب الاوسط للأخفش (٤١) معنى كتاب سيبويه - (٤٢) المقتضب . وفيه يقول ابن الأنباري : وصنف كتباً كثيرة ومن أكبرها كتاب المقتضب وهو نفيس إلا أنه قلّما يشتهر به أو ينتفع به .

قال أبو على : نظرت فى كتاب «المقتضب» فما انتفعت منه بشئ إلا بمسألة واحدة «وهى وقوع إذا جواباً للشرط فى قوله تعالى : «وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون» . وكان السر فى عدم الانتفاع به أن أبا العباس لما صنف هذا الكتاب أخذه عنه ابن الراوندى المشهور بالزندقة وفساد الاعتقاد وأخذه الناس من ابن الراوندى وكتبوه منه فكأنه عاد عليه شؤمه فلا يكاد ينتفع به - (٤٣) المقصور والممدود - (٤٤) المدامح والمقابح - (٤٥) الناطق - (٤٦) الوشى.

هذا ما ذكره الذين أرخو للمبرد. ولعل بعد هذا الذى ذكروه شيئاً آخر . ثم إن هذا الذى ذكروه لم يصلنا كله ولا زلنا نضل أكثره ، والكتاب الخالد للمبرد والذى خلد به اسمه ، هو :

### كتاب الكامل :

ويصف أبو العباس المبرد هذا الكتاب فى تقديمه له فيقول : هذا كتاب الفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة. والنية أن نفسر كل ما وقع فى هذا الكتاب من كلام غريب أو

معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحاً شافياً حتى يكون الكتاب بنفسه مكتفياً وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنياً .

فالكتاب بهذا التقديم الذى قدمه به مؤلفه يُعد - كما قلت لك قبل - من تلك الكتب التى مهدت للعمل المعجمى . غير أن المبرد لم يشر فى تقديمه إلى ما ضمنه كتابه هذا من فوائد تاريخيه ، أوفاها كلامه عن الخوارج ، هذا الكلام الذى يضم حقائق يكاد كتاب الكامل يكون مرجعها .

وبعد فثمة شريك فى هذا الكتاب للمبرد هو أبو الحسن على بن سليمان الأخفش (٣١٥ هـ) وهذا الشريك شارك فى اثنين : أولاهما أنه روى هذا الكتاب عن المبرد .

يقول ابن خير الاشبيلى فى فهرسه الذى جمع فيه أسانيد ما رواه من الكتب ، قال : كتاب الكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد ، حدثنى به أبو محمد بن عتَّاب عن أبى عمر بن عبد البر عن أبى عثمان سعيد بن عثمان النحوى عن أبى عثمان سعيد بن جابر . وقال أبو محمد بن عتاب . وحدثنى به أبى رحمه الله قال :

حدثنى به أبو مطرف عبد الرحمن ابن مروان القنازعى عن أبى بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن القوطية عن أبى عثمان سعيد بن جابر عن الأخفش عن المبرد .

وتزيد العبارة التى فى صدر كتاب الكامل شيئاً على هذا نكاد نحس منه أن الأخفش كان له شئ فى جمع الكتاب وتبويبه ، إذ تقول العبارة : «حدثنا أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز قال حدثنا أبو عثمان سعيد ابن جابر قال حدثنا أبو الحسن على بن سليمان الأخفش قراءة عليه قال قرئ لى هذا الكتاب على أبى العباس محمد بن يزيد المبرد» .

فالأخفش يكاد يصرح فى قوله «قرئ لى هذا الكتاب» بأنه سوى الكتاب ثم قرأه على المبرد .

وثانية المشاركتين تكاد توضح الأولى إذ الكتاب كما يضم كلاماً منسوباً إلى المبرد يضم فى عقبه أو فى خلاله كلاماً منسوباً إلى الأخفش .

خذ مثلا لذلك : فالمبرد يمضى فى حديثه بعد التقديم يقول :

«قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار فى كلام جرى : إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند

الطمع . الفزع فى كلام العرب على وجهتين : أحدهما ما تستعمله العامة تريد به الذعر ، والآخر الاستنجاد والاستصراخ ، من ذلك قول سلامة بن جندل :

كنا إذا مـــا أتانا صـــارخ فـــزع

كـــان الصـــراخ له قـــرع الظنابيب

يقول : إذا ماأتانا مستغيث كانت إغاثته الجد فى نصرته . قال : قرع لذلك الأمر ظنبوبه ، إذا جد فيه ولم يفـتـر ، ويشـتق من هذا المعنى أن يقع فـزع فى مـعنى أغاث ، كما قال الكاحبة اليربوعى» .

وهنا يدخل أبو الحـسن الأخـفـش فى الحـديث فيقول :

قال أبو الحسن : الكلحبة لقبه ، واسمه هبيرة ، وهو من بنى عـرين بن يربوع . والنسب إليـه عـرينى ، وكـثـيـر من الناس يقول عـرنى ، ولا يدرى . وعـرينة من اليمن ، قال جرير يهجو عرين بن يربوع :

عـــرين من عـــرينة ليس منا

برئت إلى عـــرينة من عـــرين

ثم يصل حديث المبرد فيذكر بيت الكلحبة اليربوعي :

فقلت لكأس ألجميها فإنما

حللت الكثيب من زرود لأفزعا

يقول : لأغيث . وكأس : اسم جارية . وإنما أمرها بإلجام فرسه ليغيث . والظنبوب : «مقدم عظم الساق» .

ويتكرر هذا فى مواضع كثيرة من الكتاب ، يصدر ما لأبى العباس المبرد بكلمة «قال أبو العباس» كما يصدر ما لأبى الحسن الأخفش بكلمة «قال أبو الحسن» .

والكتاب يفقد المقدمة المفصلة التى اعتدنا مثلها عن مؤلفين عاصروا المبرد ، إذ المقدمة التى بين أيدينا وهى أسطر قليلة - سقت لك أكثرها - لا تلقى ضوءاً على منهج الكتاب وتبويبه ، ولعل هذه تضيف دليلا إلى أن الكتاب من جمع الأخفش .

وبعد هذه المقدمة القصيرة تقرأ أحاديث متفرقة لا صلة بينها ، وكان هذا منهج العصر فى الأكثر ، أولها ذلك الحديث الذى سقته شاهداً على مشاركة الأخفش

للمبرد فى الكتاب ، وبعد هذا الحديث كلمة أبى بكر فى مرضه ثم عهد أبى بكر بالخلافة إلى عمر ، ثم أول خطبة خطبها عمر ، ثم رسالة عمر فى القضاء إلى أبى موسى ، ثم كتاب عثمان إلى على بن أبى طالب حين أحيط به ، ثم معاتبة عثمان عليا ، ثم كلمة على حين بلغه أن خلا لمعاوية وردت الأنبار وقتلوا عامله حسان بن حسان . وحين ينتهى الجامع من هذا يبدأ فى تبويب الكتاب أبواباً لا ينتظمها غرض واحد . من أجل ذلك اجتزى فيها بذكر كلمة «باب» اللهم إلا فى اماكن قليلة حيث يفهرس الأبواب ويحدد غرضها وذلك فى مواضع أربعة :

أولها عند الكلام على الخوارج (الباب ٤٨) فقيل : باب من أخبار الخوارج . والغريب أن الباب الذى تلا هذا الباب (باب ٤٩) ذكر غير متميز مع أنه متصل بأخبار الخوارج مكمل للباب الذى قبله .

وثانى هذه المواضع الباب المتم الخمسين ، فقد ذكر هو الآخر متميزاً باسم «هذا باب النسب إلى المضاف» . والغريب أن هذا الباب هو الآخر متصل بأخبار الخوارج وليس فيه من الكلام على النسب إلا

ثلاث صفحات في أوله وسائره في أخبار الخوارج ويبلغ نحواً من مائة وعشرين صفحة .

وثالث هذه المواضع هو الباب الواحد والخمسون. فقد عنون متميزاً باسم «باب في اختصار الخطب والتحميد والموعظ» وأنت لا تقرأ فيه شيئاً يتصل بالعنوان إلا صفحات قليلة وسائر صفحاته التي تربى على المائة في أغراض أخرى .

ورابع هذه المواضع الباب الثالث والخمسون وموضوعه «باب ذكر الأذواء من اليمن في الإسلام» وهذا الباب هو الآخر لا يضم كلاماً يتصل بعنوانه إلا كلاماً قليلا لا يعدو الصفحتين وسائره كلمات مختلفة في أغراض متباينة .

وهذا التبويب في جملته نكاد نرده إلى مجالس انتظمته أو أزمنة احتوته أو أمكنة تضمنته . ونكاد نشك في هذه الإضافات التي أضفت لهذه الأبواب الأربعة مع عناوينها ونكاد نملى أنها مزيدة على الأصل .

وبعد هذا فالكتاب يضم مادة غزيرة مختلفة تقع على الكثير من الأدب واللغة والتاريخ والنحو ، وأنت مع هذا كله لا تحس مللا لأنك لا تقرأ أدباً متصلا ولا لغة

متصلة ولا تاريخاً متصلا ولا نحواً متصلا ، نسوق لك على سبيل المثال هذا الباب الأخير من الكتاب وهو الباب الرابع والخمسون . وقد ميز شبه تمييز فقيل فيه : «هذا باب قد تقدم ذكرنا إياه ووعدنا استقصاءه» وهو يعنى الحديث عن الحيوان من حيث تعريفه وتنكيره وتذكيره وتأنيثه . وسوف تجد أن الحديث عن هذا سوف لا يستوعب كثيراً ، كما يعنى خطباً ومواعظ ورسائل أرجأ ذكرها أولا ، يقول :

اعلم أن كل شئ من الحيوان كان مما يخبر الناس عنه كما يخبرون عن أنفسهم ومما يقتنونه ويتخذونه فيهم حاجة إلى الفصل بين معرفته ونكرته ومذكره ومؤنثه ، تقول : جاءنى رجل ، إذا لم تدر من هو بعينه ، أو دريت فلم ترد أن تبين ، ثم تعرفه لصاحبك إذا أردت ذلك إما بألف ولام ، وإما باسم معروف أو إضافة أو غير ذلك . وكذلك يفصل الناس بين الخيل بأسماء أو نعوت يعرفون بها بعضها من بعض ، وكذلك الشاء والكلاب والإبل ، ولولا تمييز بعضها من بعض لم يستقم الإخبار عنها والاختصاص بما أريد منها ، فإذا كان الشئ ليس مما يتخذونه لم يحتاجوا إلى التمييز بين بعضه وبعض ، يقول الرجل :

رأيت الأسد . فليس يعنى أسداً بعينه ولكن يريد الواحد من الجنس الذى قد عرفت ، وكذلك الذئب والعقرب والحية وما أشبه ذلك ، ألا ترى أن ابن عرس وسام أبرص وأم حبين وأبا الحارث وأبا الحصين معارف ، لا على أن تميز بعضها من بعض ولكن تعريف الجنس ، وقولك ابن مخاض وابن لبون وابن ماء نكرات لان هذا مما يتخذه الناس وابن ماء إنما هو مضاف إلى الماء الذى يعرف ، فاذا أردت التعريف من هذه لهذه النكرات أدخلت فيما أضيفت إليه الألف واللام أو لقبتها ألقاباً تعرف بها كزيد وعمرو .

واعلم أن كل جمع مؤنث ، لأنك تريد معنى جماعة ولا تذكر من ذلك إلا ما كان فعله يجرى بالواو والنون فى الجمع ، وذلك كل ما يعقل ، تقول : مسلم ومسلمون ، كما تقول : قوم يسلمون ، وتقول للجمال : هى تسير ، وهن يسرن ، كما تقول للمؤنث ، لأن أفعالها على ذلك . وكذلك الموات . قال الله عز وجل فى الأصنام (رب انهن أضللن كثيراً من الناس) والواحد مذكر . وقال المفسرون فى قوله : (إن يدعون من دونه إلا إناثاً) قالوا : الموات ، فكل ما خرج عما يعقل فجمعه بالتأنيث

وفعله عليه لا يكون إلا ذلك ، إلا ما كان من باب المنقوص ، نحو سنين وعزين. وليس هذا موضعه . وجملته أنه لا يكون إلا مؤنثاً ، فلهذا كان يقع على بعض هذا الضرب الاسم المؤنث فيجمع الذكر والأنثى ، فمن ذلك قولهم : عقرب ، فهو اسم مؤنث ، إلا أنك ان عرفت الذكر قلت : هذا عقرب ، وكذلك الحية ، تقول للأنثى : هذه حية ، وللذكر : هذا حية . قال جرير :

إن الخفافيث منكم يا بنى لجأ

يطرقن حيث يصول الحية الذكر

قال الأخفش : الخفافيث : ضرب من الحيات يكون صغير الجرم ينتفخ ويعظم وينفخ نفخاً شديداً لا غائلة له .

وتقول : هذا بطة للذكر ، وهذه بطة للأنثى ، وهذا دجاجة ، وهذه دجاجة . قال جرير :

لما تذكرت بالديرين أرقنى

صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

يريد زقاء الديوك . فالاسم الذى يجمعهما : دجاجة للذكر والأنثى ، ثم يخص الذكر بأن يقال :ديك . وكذلك تقول : هذا بقرة ، لهما جميعاً ، وهذا حبارى ، ثم يخص الذكر . فتقول : ثور ، وتقول للذكر من الحبارى : خرب . فعلى هذا يجرى هذا الباب . وكل ما لم نذكره فهذا سبيله .

وقد كنا أرجأنا أشياء ذكرنا أنا سنذكرها فى آخر هذا الكتاب . منها خطب ومواعظ ورسائل . ونحن ذاكرون ما تهيأ من ذلك ان شاء الله :

قال الأصمعى فيما بلغنى : خطبنا أعرابى بالبادية فحمد الله واستغفره ووحده وصلى على نبيه فبلغ فى إيجاز ثم قال : أيها الناس إن الدنيا دار بلاغ، والآخرة دار قرار ، فخذوا من ممركم لمقركم ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم . فى الدنيا كنتم ولغيرها خلقتم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . والمصلى عليه رسول الله والمدعو له الخليفة والأمير جعفر بن سليمان.

وحدثت فى بعض الأسانيد أن عمر بن عبد العزيز قال فى خطبة له : أيها الناس إنما الدنيا أمل مخترم ،

وأجل منتقص ، وبلاغ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج . فرحم الله امرأ فكر في أمره . ونصح لنفسه ، وراقب ربه ، واستقال ذنبه ، ونور قلبه .

أيها الناس قد علمتم أن أباكم قد أخرج من الجنة بذنب واحد ، وأن ربكم وعد على التوبة ، فليكن أحدكم من ذنبه على وجل ، ومن ربه على أمل .

ويروى أن رجلا معروفاً - ذهب اسمه عني - قال : أتيت ابن عمر فقلت : أتجب الجنة لعامل بكل الخيرات وهو مشرك ؟ فقال : لا . فقلت له : أتجب النار لعامل بالشر كله وهو موحد ؟ قال : عش ولا تغتر .

قال : وأتيت ابن عباس فسألته فأجابني بمثل جوابه سواء ، وقال : عش ولا تغتر .

قال : وحدثني بهذا الحديث القاضي - يعني اسماعيل بن اسحاق -

وذكر العتبي ، أحسبه عن أبيه عن هشام بن صالح عن سعد القصر ، قال : خطب الناس بالموسم عتبة في سنة إحدى وأربعين ، وعهد الناس حديث بالفتنة ، فاستفتح ثم قال : أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا الموضع الذي يضاعف الله فيه للمحسن الأجر

وعلى المسيء الوزر ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا فإنها تنقطع دوننا ، ورب متمن حتفه فى أمنيته ، اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم ، واياكم ولو ، فقد أتعبت من كان قبلكم ، ولن تريح من بعدكم ، فاسألوا الله أن يعين كلا على كل . فنعق به أعرابى من مؤخر المسجد فقال : أيها الخليفة . فقال : لستُ به ولم تُبعد . قال : فيا أخاه . قال : قد أسمعت فقل . فقال : والله لأن تحسنوا وقد أسأنا خير لكم من أن تسيئوا وقد احسنا فأن كان الاحسان لكم فما أحقكم باستتمامه، وان كان لنا فما أحقكم بمكافاتنا . رجل من بنى عامر يمت إليكم بالعمومة ، ويختص إليكم بالخؤولة ، وقد وطئه زمان وكثرة عيال ، وفيه أجر وعنده شكر . فقال : عتبة : أستعيذ بالله منك وأستعينه عليك ، قد أمرت لك بغناك فليت اسراعنا إليك يقوم بابطائنا عنك .

قال : وخطب الناس معاوية بن أبى سفيان فحمد الله وصلى على نبيه ثم قال : أيها الناس ، إنى من زرع قد استُحصد ، ولن يأتيكم بعدى إلا من أناخير منه ، كما لم يكن قبلى إلا من هو خير منى .

فلما مات دخل الناس على يزيد يعزونه بأبيه ويهنئونه بالخلافة ، فجعلوا يقولون ، حتى دخل رجل

من ثقيف فقال : السلام عليك أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، إنك قد فجعت بخير الآباء وأعطيت جميع الأشياء ، فاصبر على الرزيئة واحمد الله على حسن العطية ، فلا أعطى أحدكما أعطيت ، ولا رزئ كما رزئت . فقام ابن همام السلولى فأنشده شعراً كأنما فاوضه الثقفى ، فقال :

اصبر يزيد فقد فارقت ذا مقة

واشكر بلاء الذى بالملك أصفاكا

أصبحت تملك هذا الخلق كلهم

فأنت ترعاهم والله يرعاكا

ما إن رزئ أحد فى الناس نعلمه

كما رزئت ولا عقبى كعقباكا

وفى معاوية الباقى لنا خلف

إذا نعيت ولا نسمع بمنعاكا

ويروى أن خالد ابن صفوان دخل على يزيد ابن المهلب وهو يتغذى فقال : ادن فكل يا أبا صفوان.

فقال : أصلح الله الأمير لقد أكلت أكلة لست ناسيها .
قال : وما أكلت ؟ قال : أتيت ضيعتى لإبان الغراس وأوان العمارة فجلت فيها جولة حتى إذا صخدت الشمس وأزمعت بالركود ملت إلى غرفة لى هفافة فى حديقة قد فتحت أبوابها ونضحت بالماء جوانبها وفرشت أرضها بأنواع الرياحين من بين ضيمران نافح ، وسمسق فائح ، وأقحوان زاهر ، وورد ناضر ، ثم أتيت بخبز أرز كأنه قطع العقيق ، وسمك بنانى بيض البطون زرق العيون سود المتون عراض السرر غلاظ القصر ، ودُقة وخاول ومُرى وبُقول : ثم أتيت برطب أصفر صاف غير أكدر لم تبتذله الأيدى ولم يهشمه كيل المكاييل ، فأكلت هذا ثم هذا . فقال يزيد : يا بن صفوان لألف جريب من كلامك مزروع خير من ألف جريب مذروع .

ونحن ذاكرون الرسائل بين أمير المؤمنين المنصور وبين محمد بن عبد الله بن حسن العلوى كما وعدنا فى أول الكتاب ونختصر ما يجوز ذكره منه ونمسك عن الباقى فقد قيل : الراوية أحد الشاتمين .

قال : لما خرج محمد بن عبد الله على المنصور كتب إليه المنصور : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد

الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله . أما بعد (فإنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) ولك عهد الله وذمته وميثاقه وحق نبيه محمد إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك، وأن أعطيتك ألف ألف درهم وأنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ما شئت من الحاجات وأن أطلق ما فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتتبع أحداً منكم بمكروه . فان شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والامان ما أحببت والسلام .

فكتب إليه محمد بن عبد الله: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين إلى عبد الله ابن محمد أما بعد (طسم تلك آيات الكتاب المبين. نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق ، لقوم يؤمنون. إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يُذبّح أبناءهم ويستحيى نساءهم

إنه كـان من المفـسـدين . ونريد أن نمن على الذين استـضـعـفوا فى الأرض ونجـعلهم أئمة ونجـعلهم الوارثين . ونمكنّ لهم فى الأرض ونرى فـرعون وهامان وجنـودهـمـا منهم مـا كـانوا يحـذرون) وأنـا أعـرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى ، وقد تعلم أن الحق حقنا ، وأنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا ، وخطبتموه بفضلنا ، وإن أبانا عليًا عليه السلام كـان الوصى والإمام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء ، وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا ، وأنا بنو أم رسول الله فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم ، وبنوا ابنته فاطمة فى الإسلام من بينكم فأنا أوسط بنى هاشم نسبا ، وخيرهم أمًا وأباً ، لم تلدنى العجم ولم تعرق فىَّ أمهات الأولاد ، وأن الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا فولدنى من النبيين أفضلهم مـحـمـد صلى الله عليـه وسلم ،ومن أصـحـابه أقدمهم إسـلامـاً وأوسعهم علمـاً وأكـثـرهـم جـهـاداً على بن أبى طالب ، ومن نسـائـه أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة ، ومن بناته فاطمة أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسـلام الحسن والحسين

سيدا شباب أهل الجنة ، ثم قد علمت أن هاشماً ولد عليًا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، وأن رسول الله ولدني مرتين من قبل جدى الحسن والحسين ، فما زال الله يختار لى حتى اختار لى فى النار ، فولدنى أرفع الناس درجة فى الجنة وأهون أهل النار عذاباً ، فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة ،وابن خير أهل النار . ولك عهد الله إن دخلت فى بيعتى أن أؤمنك على نفسك وولدك ، وكل ما أصبته إلا حداً من حدود الله ، أو حقًا لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك فى ذلك ، فأنا أوفى بالعهد منك وأحرى لقبول الأمان . فأما أمانك الذى عرضت على فأى الأمانات هو أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن على ، أم أمان أبى مسلم ؟ ، والسلام .

فكتب إليه المنصور : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله . أما بعد فقد أتانى كتابك وبلغنى كلامك . فاذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء ، ولقد جعل العم أباً وبدأ به على الوالد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام (واتبعت ملة آبائى إبراهيم

وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ) ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمداً وعمومته أربعة فأجابه اثنان أحدهما أبى ، وكفر اثنان أحدهما أبوك . فأما ما ذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لأمنة بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه . فأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب فان الله لم يهد أحداً من ولدها للإسلام ، ولو فعل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير فى الآخرة والأولى، وأسعدهم بدخول الجنة غداً، ولكن الله أبى ذلك فقال (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) فأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب، وفاطمة أم الحسن وأن هاشماً ولد علياً مرتين، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين، فخير الأولين والآخرين محمد رسول الله، لم يلده هاشم إلا مرة واحدة، ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة. وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله فإن الله عز وجل أبى ذلك فقال (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة غير أنها امرأة لا تحوز الميراث، ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الإمامة من قبلها. ولقد طلب

بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضها سراً ودفنها ليلاً، فأبى الناس إلا تقديم الشيخين. ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله فأمر بالصلاة غيره، ثم أخذ الناس رجلاً رجلاً فلم يأخذوا أباك فيهم، ثم كان فى أصحاب الشورى فكل دفعه عنها. بايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعداً إلى بيعته فاغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم، وأسلم فى يديه شيعته وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير حله، فإن كان لكم فيها شئ فقد بعتموه.فأما قولك: إن الله اختار لك فى الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً. فليس فى الشر خيار ولا من عذاب الله هين، ولا ينبغى لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار وسترد فتعلم (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون). وأما قولك: إنك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد وأنك أوسط بنى هاشم نسباً وخيرهم أماً وأباً، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخراً وأصلاً وفصلاً. فخرت على إبراهيم بن رسول الله، وعلى والد ولده، فانظر ويحك

أين تكون من الله غداً، وما ولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله أفضل من على بن الحسين، وهو لأم ولد ولقد كان خيراً من جدك حسن بن حسن، ثم إبنه محمد بن على خير من أبيك، وجدتك أم ولد، ثم ابنه جعفر وهو خير منك.ولقد علمت أن جدك علياً حكم حكمين وأعطاهما عهده وميثاقه على الرضى بما حكما به، فاجتمعا على خلعه، ثم خرج عمك الحسين بن على على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب بغير أوطية كالسبى المجلوب إلى الشام. ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل. حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباكم فى أدبار الصلاة الكتوبة كما تلعن الكفرة فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضله وأشدنا بذكره ، فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا لما ذكرنا من فضل على أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر ، كل أولئك مضوا سالمين مسلماً منهم وابتلى أبوك بالدماء ، ولقد علمت أن مآثرنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون إخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر

فقضى لنا عمر عليه ، وتوفى رسول الله وليس من عمومته أحد حياً إلا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب . وطلب الخلافة غير واحد من بنى هاشم فلم ينلها إلا ولده ، فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله خاتم الأنبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القديم والحديث ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات عماك طالب وعقيل جوعاً أو يلحسا جفان عتبة وشيبة ، فأذهب عنهما العار والشنار . ولقد جاء الإسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التى أصابتهم ثم تحدى عقيلا يوم بدر فقد مناكم فى الكفر وفديناكم من الأسر ورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزنا شرف الآباء وأدركنا من ثاركم ما عجزتم عنه ، ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام .

ثم مضى المبرد يذكر شيئاً من هذه الرسائل على وفق ما رسم ، إلى أن يقول :

هذا الكتاب قد وفيناه جميع حقوقه ، ووفينا بجميع شروطه ، إلا ما أذهل عنه النسيان ، فانه قلما يخلى من ذلك ، ونحن خاتموه بأشعار طريفة ، وأخر ذلك نختم به آيات من كتاب الله عز وجل بالتوقيف على معانيها إن شاء الله .

قال الشاعر :

اذكر مجالس من بني أسد

بعدوا وحن إليهم القلب

الشرق منزلنا ومنزلهم

غرب وأنى الشرق والغرب

من كل أبيض جل زينته

مسك أحم وصارم عضب

وقال آخر :

حياة أبي العوام زين لقومه

لكل امرئ قاسَ الأمور وجربا

ونعتب أحياناً عليه ولو مضى

لكُنا على الباقي من الناس أعتبا

وقال مسلم :

حياتك يا بن سعدان بن يحيى

حياة للمكارم والمعالي

جلبت لك الثناء فجاء عفواً

ونفس الشكر مطلقة العقال

وترجـــعنى إليك وان نـأت بى

ديـارى عنك تجـــربة الرجــــال

وقيل فى المثل : المبالغة فى النصيحة تقع بك على عظيم الظنة .

وأنشدنى العباس بن الفرج الرياشى :

وكم سقتُ فى آثاركم من نصيحـة

وقـد يسـتـفـيـد الظنة المتنصح

وأنشدنى الرياشى :

إذا الأمـر أغنى عنك حِنْويه فـاجتنب

مـــعـرَّة أمــر أنت عنه بمعـــزل

وقال العتابى :

لا ترج رجـــعـــة مـــذنب

خلط احـــتـجـاجـا باعـتـذار

وقال أيضاً :

وفـــيـتُ كل خـليل ودُنى ثمنا

إلا المـؤمـل دولاتـى وأيـامـى

إلى أن يقول :

وقيل للعتابي : ما أقرب البلاغة ؟ ، قال : أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام القائل ، ولا يؤتى القائل من سوء فهم السامع . وقال ابن يسير :

قــدِّر لرجلك  قبل الخطو منزلها

فـمن عــلا زلقـا عن غـرة زلقــا

وكان يقال : اصمت لتفهم ، واذكر لتعلم ، وقل لتذلق .

ونذكر آيات من القرآن ربما غلط في مجازها النحويون . قال الله عز وجل [إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه] مجاز الآية أن المفعول الأول محذوف ومعناه : يخوفكم من أوليائه . وفي القرآن : (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) ، والشهر لا يغيب عنه أحد ، ومجاز الآية : فمن كان منكم شاهداً بلده في الشهر فليصمه ، والتقدير : فمن شهد منكم ، أي فمن كان شاهداً في شهر رمضان فليصمه . نصب الظرف لا نصب المفعول به . وفي القرآن في مخاطبة فرعون : (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) فليس معنى ننجيك نخلصك ، ولكن نلقيك على نجوة من الأرض

ببدنك بدرعك ، يدل على ذلك (لتكون لمن خلفك آية) وفى القرآن : (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم) ،. فالوقف ، يخرجون الرسول وإياكم ، أى : ويخرجونكم لأن تؤمنوا بالله ربكم.

ثم يختم الكتاب بقوله «وصلى الله على محمد خاتم النبيين ونستغفر الله مما قلناه من عمد وقصد وزلل وخلل» .

هذا هو كتاب الكامل صورناه لك لتعرف أن ابن خلدون لم يبعد عن الحق حين قال : سمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأزمانه أربعة دواوين ، وهى : كتاب الكامل للمبرد وأدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب البيان والتبين للجاحظ وكتاب النوادر لأبى على القالى ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها .

فهذا حكم الشيوخ القارئين . يجمعون على هذه الأربعة ، ويجمعون على جعل كتاب الكامل على رأسها.

وكتاب الكامل للمبرد قد طبع طبعة أولى فى ليبسك سنة ١٨٦٤ م ، ثم طبع فى الأستانة فى نحو سنة ١٨٧٠ م ، ثم فى مصر فى نحو سنة ١٩٠٠ م :

وحين وكل إلى المرحوم الأستاذ سيد بن على المرصفى مطالعة هذا الكتاب فى الأزهر رأى أن يضيف إليه شرحاً فوضع كتابه « رغبة الآمل من كتاب الكامل» وجعله فى أجزاء ثمانية ضمنه شروحاً كثيرة غزيرة .

وقد طبع هذا الكتاب فى مصر سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م .

ويذكر حاجى خليفه فى كتابه كشف الظنون أن ثمة شرحاً لكتاب الكامل باسم محمد بن يوسف المازنى السرقسطى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ . غير أن هذا الشرح لم يقع لنا .